نظرية عمود الشعر.

تقوم النظرية الشعرية العربية على مقولات نقدية ومجموعة من المعايير جاءت في مجملها بلاغية بامتياز ، أسس لها البلاغيون والنحويون حين استنبطوها من الشعر العربي القديم /الجاهلي على وجه الخصوص الذي يمثل سلطة معرفية ونسقا ثقافيا مقدسا لاتجوز الحيدة عنه تمثلت تحديدا في المعايير التي صاغها المرزوقي

أفاد المرزوقي من الأركان الأربعة التي حدّدها الجرجاني، فأثبتها وفصّل القول فيها شارحا، وأضاف إليها أركانا جديدة، هي: التحام أجزاء النظم والتئامها مع المتخيّر من لذيذ الأوزان (لتكون القصيدة متلاحمة الأجزاء كأنّها البيت المتماسك... والطبع السليم وجريان الكلام على اللسان معيار لتشخيص هذا في القصيدة)، ومناسبة المستعار منه للمستعار (لتكون المشابهة قوية بين طرفي الاستعارة ، وهي هنا كالتشبيه)، مشاكلة اللفظ للمعنى وشدّة اقتضائها للقافية (فلا تحصل منافرة فالمعنى الشريف له ألفاظه المناسبة..). وعلى هذا صارت أركان عمود الشعر دائرة في سبع نقاط. وبذا اتسع مفهوم عمود الشعر وتعددت أركانه. فصار يضم شعر أبي تمام مثلما يضم شعر البحتري أيضا

انحصر النسق الثقافي والسلطة المعرفية في موضوع التشاكل داخل سلطة النموذج القديم المتمثل في عمود الشعر أو القصيدة العمودية التي كانت بداياتها الأكاديمية مع ابن سلام الجمحي أو مايمكن تسميته بقصيدة الفحول إلى غاية امتلاكها مطلقية السيادة الشعرية من خلال هيكلتها ومأسستها مع المرزوقي الذي سن قوانينها وشرع معاييرها

تتضح ليبيرالية النموذج القديم في الدرس النقدي لابن سلام الجمحي من خلال فلسفة الفحولة والفحول المهيمنة على طبقاته ، التي خصها بشعراء بعينهم دون غيرهم من الشعراء وهم من الجاهليين والإسلاميين حيث خص الطبقة الأولى بالجاهليين على اعتبار توفر عناصر الفحولة الشعرية /معايير العمود فيهم.

فالرؤية النقدية التي كرسها ابن سلام الجمحي كان أساسها هيمنة النموذج الشعري القديم ،الذي حددته المؤسسة الشعرية إذ هي البنية الجمالية التي توفرت فيها شروط النموذج الشعري الكلاسيكي ؛هذا مايفسر لنا إقصاء شعراء عصره من طبقاته على اعتبار توجههم المحدث الذي لا تتوفر فيه عناصر عمود الشعر

استمر طقس الطلل والعمود في الشعر والشعراء مع ابن قتيبة ، إذ يبدو تصوره رغم تقبله للمحدث بوصفه توفيقيا تصورا قائما على مبدأ المشاكلة (الذي ينظر إلى النص على أنه انعكاس لعلاقات كانت قائمة ومشتهرة عقليا وعرفيا قبل نشوء النص . عبد الله محمد الغذامي ،المشاكلة والاختلاف ، قراءة في النظرية النقدية وبحث في الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،ط1 س 1994, ص67.).

إذ يحظر ابن قتيبة على المحدثين من الشعراء أن يخرجوا عن مذهب القدماء في قوله :(وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل أو يصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن والطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ،لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة . الشعر والشعراء ، دار الثقافة بيروت 1980. ص22).

إذ يتضح جليا أن قضية البقاء في مملكة الفحول تقتضي الوقوف على تقاليد القصيدة الالكلاسيكية التي أنتجها الأولون ؛(عبر مقدمات وانتقالات مقننة ،وهي ذكر الديار والدمن والآثار والبكاء والشكوى ومخاطبة الربع ، واستيقاف الرفيق ،ليكون ذلك مدخلا لذكر أهلها الظاعنين ،ثم وصل ذلك بالنسيب ،ثم ذكر الإرتحال ومايرتبط به من مكابدة العناء والنصب وإنضاء الراحلة ، ثم الإنتقال الى المديح .مسلم حسب حسين ، الشعرية العربية أصولها ومفاهيمها واتجاهاتها ،منشورات ضفاف ط١ ردمك 1913 ص117.).

فرغم موقف ابن قتيبة التوفيقي الذي بني على الإعتراف في قضية القديم والمحدث في مقامات مغايرة حين يتحدث عن الشعراء المحدثين إذ يقول :(ولانظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ،بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ،ووفرت عليه حقه. الشعر والشعراء .المرجع السابق ص ١٠-١١).فإن أيديولوجية الارتباط بالهوية الفكرية للنموذج الشعري القديم ظلت تنظم المعرفة والفكر العربيين ؛(فالشاعر المجيد من سلك هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر .المرجع السابق

يقصد ابن قتيبة بالأساليب طريقة الأولين ومنهجهم في قول الشعر والتي يمكن تصنيفها ضمن الثوابت ، والثابت في إطار الثقافة العربية هو الفكر الذي ينهض على النص ، ويتخذ من ثباته حجة لثباته هو ، فهما وتقويما ،ويفرض نفسه بوصفه المعنى الوحيد الصحيح لهذا النص ، وبوصفه استنادا إلى ذلك سلطة معرفية .أدونيس ،الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب ج١ دار الساقي ط7 س 1994 ص13.).

يشكل الثبات والمشاكلة أهم معوقات الحداثة الشعرية العربية ، فأساليب الأولين هي السلطة المعرفية الوحيدة التي تنتج النص وتبني جمالياته ..

يأت أبو العباس المبرد (٢١٠ -٢٨٦) ليكون (أسرع إلى تبني الشعر المحدث ومنحه شيئا كثيرا من عطفه واعتماده أصلا من أصوله في تدريسه لطلابه ، وأفراده بالإختيار ،فهو لم يكتف بإيراد نماذج منه في كتبه العامة كالكامل والفاضل ،وإنما خصص كتاب الروضة لأشعار المحدثين . إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن ط٢ 1993.ص78).

هل هي بداية التصور النظري للمختلف ،أم هي مشاكلة في ثوب آخر ، أحقا يمكن للعمود الشعري العربي المتمثل في مجموعة من العناصر البلاغية بحدودها الاصطلاحية أن يتنازل للنصوصية بمختلف جمالياتها وأن يقبل بحضورها المكثف..؟

هل يمكن للمختلف أن يكون بديلا أو موازيا لعلاقات كانت قائمة ومستقرة عرفيا وعقليا قبل نشوء النص ؟

يقول المبرد :(هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل ،لأنها أشكل بالدهر ،يستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب.أبو العباس المبرد ،الكامل ج2 تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ،القاهرة 1952 ص13).

يقوم العمود على المشاكلة لا على الاختلاف هذا مايوضحه قول المبرد :فأشعار المولدين لا تصح أن تكون نصا موازيا ، بل هي للتمثل لاغير ، يستعار منها للتعلم ،فهي انعكاس لفكر مختلف منبوذ عقليا وعرفيا.

* العمود هو طريقة الأولين من الفحول في قول الشعر .

يعد الجاحظ من أهم الرواة النقاد ممن ألموا بالنقد في ق٣، نظرا لسعة ثقافته التي تظهر في مدونه الحيوان والبيان والتبيين خاصة ،فهو كما يقول إحسان عباس (من خير من يحسنون تأسيس النقد على أصول نظرية وتطبيقية .إحسان عباس ،المرجع السابق ص83).

يبدو الجاحظ في قضية القديم والمحدث الأكثر انفتاحا ومرد ذلك ثقافته المنفتحة على الآخر ، إذ يقول : وقد رأيت أناسا يهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر مايروى .الجاحظ كتاب الحيوان ،تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ،القاهرة 1938-1945،ص 130).

وفي موضع آخر عن أبي نواس يقول :(وإتأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيئ ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا .(الحيوان ص29).

تعد الغلبة نظير المشاكلة ، إذ تدور في مدار النص المهيمن /العمود الثابت ، وهو نص الأوائل المطبوع على مذهب على مذهبهم وطريقتهم يضطرب الجاحظ هو الآخر رغم موقفه التوفيقي وينحرف عن مبدأ المختلف ،حين يتحدث عن ضرورة اجتماع العناصر الثلاثة (الغريزة والبلد والعرق) و(إنما ذلك _أي قول الشعر _عن قدر ماقسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق .1-الجاحظ ، الحيوان ج4 ص381.).

وإن كان هذا في باب مناقشته لابن سلام في موضوع كثرة الشعر

بالحروب ،فقد ذهب مع ذلك إلى أن العرق العربي سواء أكان عربيا في الحاضرة أو أعرابيا في البادية أشعر من العرق المولد الذي يعيش في مدينة أو قرية ، كما يتضح موقفه العرقي في حديثه عن المولد الذي (قد يجيئ ، بأبيات تلحق بشعر أهل البدو إذا استعد بنشاطه وجمع باله ولكن إذا استرسل في القول انحلت قوته واضطرب كلامه .الجاحظ ،السابق ص132.الجاحظ ، السابق ص132).

يبدو جليا أن مسألة التعصب للعرق هي التينة التي تزاحم مفهوم المختلف في الفكر العربي ، تعيق الإبداع وإعادة بناء النص بمعايير جمالية جديدة .

مما جعل الإبداع نظاما انضباطيا وواقعا لغويا محكما مسبقا ينبني فيه النص وفق نمذجة محاكية مغلوبة بأعراف لغوية وبلاغية.

تستمر سردية المشاكلة في النص النقدي العربي مع أبي العباس عبدالله بن المعتز 296 هـ رغم ايمانه بالنصوصية ،فقد كان خير من آمن بأن (أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه. ابن المعتز ،الطبقات ص28.).

فقد قام فكره على مبدأ التعدد والتحول في الذوق إذ يقول :(ومما يستحسن من شعره وإن كان كله حسنا .ابن المعتز ، السابق 28.)،كما قال في شعر أبي تمام (ومما يستملح من شعره وشعره كله حسن .ابن المعتز ،السابق ص 284).

إذ يبدو في تعامله مع الشعر المحدث تجاوزا لأيديولوجية المطابقة التي هيمنت بشكل واضح، فقد تكررت مثل تلك الأمثلة في كتابه ، فهو بهذا المظهر تحقق له صفة الناقد العادل على حد تعبير إحسان عباس (1)..المرجع السابق ص105.

غير أن ابن المعتز لاينحرف عن مبدأ المشاكلة حين أكد أ البديع لم يكن بدعا مستحدثا ، وإنما كان الفضل فيه للقدماء ، فالبديع جزء من الموروث الكبير ..

تتضح أيديولوجية أبو العباس عبدالله في رفضه لبديع أبي تمام وغيره من الشعراء المحدثين ، إذ رأى أنه إسراف وعلى غير طريقة الأولين ، إذ (تقوم الإتباعية هنا على الإيمان بأولية ثابتة ، كاملة ومطلقة) رغم أن مؤلف ابن المعتز يعد أول مؤلف علمي التزم فيه ابن المعتز المصطلح .

ظلت إشكالية الإ نتماء إلى القديم قائمة إلى غاية القرن الرابع مع ابن طباطبا
نقد القرن الرابع /استراتيجيات التحليل المنهجي للنص .
يمكننا أن نتوقف عند مدونتي ابن طباطبا وهي عيار الشعر والروضة ، المتوفي سنة ثلاثمائة واثنتي وعشرين من الهجرة ،فهو إذا قد عاش في القرنين الثالث وبداية القرن الرابع ، وإن كان على منهج نقاد القرن الثالث في تقبل المحدث إلا أن الشعر عنده كما يقول ،(ينبغي أن يكون صحيح اللغة سالما من اللحن والأخطاء اللغوية ،فقد كثر اللحن والخطأ في شعر المحدثين ،وتعقبه علماء اللغة ،وأخذوهم به وشككوا في قيمة كل شعر المحدثين .ابن طباطبا عيار الشعر ص41-42).

يبدو جليا من قوله أن(اتباع السنة أو الموروث هو معتمد ابن طباطبا في النقد ، وهو على تصنيفه في هذه الإتباعية ينفذ إلى أغوار عميقة توضح أنه لا يرى الشعر شيئا منفصلا عن البيئة والمثل الأخلاقية ،وإن لم يستطع أن يطبق على معاصريه قانون تغيير البيئات والأزمنة . إحسان عباس المرجع السابق ص 122.)

فرغم مرجعيات ابن طباطبا المتعددة وانفتاحه على المحدث ،يظل هاجس المشاكلة والشبيه مهيمنا على عناصر الشعرية العربية مستبدا بها ،اذ يتضح ذلك جليا في قوله :(والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة ، فإن أتوا بما يقصر من معاني أؤلئك ولايربي عليها ،لم يتلق بالقبول وكان كالمطروح المملول . ابن طباطبا ، عيار الشعر ص79).

فهو في هذا المقام لا يختلف عن الجاحظ الذي يحدد الفرق بين الأعرابي والمحدث الذي لابد له أن يستعد بنشاطه ويجمع باله حتى لا يضطرب كلامه

يعد المشهد النقدي مع ابن طباطبا عند نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع متصلا منهجيا وأيديولوجيا برؤى نقاد القرن الثالث الهجري ، إذ لا يمكننا الحديث عن تصور منهجيا للنقد إلا مع كتاب الموازنة للآمدي ، فقد تداخل النص النقدي قبل مدون الآمدي بما هو بلاغي حد الارتباك مما يجعلنا نجزم أن أول كتاب خالص للنقد توفرت شروطه في كتاب الموازنة بين الطائيين ..

يقول الآمدي في باب الموازنة التفصيلية والتي تؤسس لمسألة النقد المنهجي في الفكر العربي القديم :(تم احتجاج الخصمين بحمد الله وأنا ابتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ،وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالته وغلطه وساقط شعره ، ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذ من معاني أبي تمام وغير ذلك من غلط في بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ،ثم بين معنى ومعنى .أبو القاسم الآمدي ، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ،تحقيق السيد أحمد صقر ،دار المعارف ، القاهرة ط4، دس .ص22).

إن مايؤسس لعناصر النقد المنهجي في هذه المدونة كونها دراسة داخلية للنص توقف فيها الآمدي عند عناصر نصية مرتبطة بالنقد وليس بالبلاغة مثلما جرت العادة ، ورغم ظهور كتابه بعد عنف الخصومة بين أبي تمام والبحتري التي بلغت أقصاها خلال القرن الثالث يقدم محاولة جديدة لمداراة المعنى العميق لحادثة كسر عمود الفحولة ، متسترا على حادثة الإنتهاك والإنحراف عن الذاكرة من خلال تهوين حدتها وتقديم ابدالات غير متوقعة وذلك بإعلانه منذ البداية عن خطيئة الإنحياز لأحد أنصار المذهبين /القديم أو المحدث .

تم له ذلك متخفيا بيقينيات منهج الموازنة الذي يتعارض وإصدار الأحكام إذ يقول :(ولست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكن أقارن بقصيدتين من شعريهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى. الآمدي .م س .ص 3 . . .
وإن كان اشتغال الآمدي نصيا فإن شعر البحتري كان يمثل الأساس النصي لنظرية الآمدي ، ليصير نموذجا للإحتذاء ، فهو نص الفحول والعمود ، قال به وفيه على طريقة الأولين ، فالآمدي يقدم في ثنايا مدونه كثير من النعوت التي تؤسس للانتصار لمبدأ المشاكلة على شاكلة (أذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالته وغلطه وساقط شعره. الآمدي ،م س ص 22.)

إذ يصف البحتري بأنه مطبوع وعلى طريقة الأولين ، أو أن البحتري أشعر من أبي تمام كونه أقوم بعمود الشعر .

يظل الصراع الثقافي بين الشبيه المختلف الحيز الرسمي في النظرية الشعرية العربية التي انتهت إلى بناء قواعدها الخاصة الممثلة في شعر الفحول مع المرزوقي في القرن الخامس .